

الأخلاق في القرآن فروع المسائل الأخلاقية

[29] الصغير ولا الرجل ولا المرأة. فطلب من الله تعالى: (قالَ أَزْطَرَّنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قالَ إِنَّكَ مِنْ الْمُزْطَرِّينَ قالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ). ومن المؤكد أن العمر الطويل له فائدة كبرى لكل شخص يزيد من حسناته، ويصحح أخطائه، وإذا كان له ماضٍ أسود يبدل له إلى مستقبل سعيد ونوراني، ولكن العمر الطويل للطغاة والصعاليك والمعاندين على العكس من ذلك فله نتائج عكسية. ولعل إجابة دعائه بالعمر الطويل من رحمة الله تعالى التي تستوعب الخاطئين، أو ربّما كان تقديراً من الله جزاءً لعبادته آلاف السنين، ولعله يعود عن غيّه، لكن هذه النعمة عندما تقع في أيدي الطغاة والصعاليك والمعاندين فستتحول إلى نقمة عليهم. وتأتي "الآية الرابعة" لتتحدث عن قوم نوح(عليه السلام) وعنادهم في مقابل دعوة نبيّهم الرحيم بهم، فدعاهم ليلاً ونهاراً في الخلاء والملاً لينجيهم من العذاب، وكلما ألحّ عليهم في قبول دعوة الحق، ازدادوا غيلاً وعناداً. فاشتكى نوح(عليه السلام) إلى الله وقال:

(قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً * وَإِنِّي كُنْتُ لَمِنَ الدَّاعِيْنَ لَيْتَ غَفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرَسُوا وَاسْتَكَذَّبُوا عَنِّي فَاسْتَكْبَرُوا). فأني تعصب وعناد هذا الذي يضع الإنسان أصابعه في آذانه حتى لا يسمع الحق ويلفّ وجهه ويغطيه بثوبه حتى لا يرى من يدعوه إلى الحق والسعادة والخير، بل يتحرّك بعيداً عنه ويتهرب من مواجهته؟! فالهروب من الحق له حدود، ولكنهم تعدّوها إلى أبعد شيء ولم يتخذوا غير طريق المعاندة والتعصب والإستبداد. فكيف يجوز للإنسان المريض أن يفرّ من الطبيب، وللغارق في الظلمات أن يتهرب من النور، وللغريق أن يتملّص من المنقذ له؟ إنّه أمر محيرٌ حقّاً، ولكن العناد واللجاج